هوامش

منذ نهاية أربعينيات القرن الماضي وحتى تفككه في عام 1991، ظلّ الاتحاد السوفييتي الدولة الرائدة عالمياً في رياضة الشطرنج، لكن البطولات والمباريات لم تخل من تأثيرات سياسية طبعت تلك الفترة

تظل مباراة كاسباروف وكاربوف من أشهر المواجهات (جيري كوك/ Getty)

رقعة الشطرنج

تاريخ من الصراع السياسي السوفييتي الغربي

موسكو ـ **رامي القليوبي**

قدّم الاتحاد السوفييتي (1922-1991) للعالم سبعة من أصل ثمانية أبطال في لعبة الشطرنج في النصف الثاني من القرن العشرين، هم ميخائيل بوتفينيك وفاسيلي سميسلوف وميخائيل تال وتيغران بيتروسيان وبوريس سباسكي وأناتولي كاربوف وغاري كاسباروف.

لكن مسيرة الشطرنج السوفييتية لم تخل من محطات اختلطت فيها اللعبة الرياضية باللعبة السياسة، من بين تلك المراحل فترة سطوع النجم الأميركي روبرت فيشر، وتتويجه بلقب بطل العالم لفترة قصيرة في مطلع السبعينيات، مروراً بتنافس أناتولي كاربوف مع لاعب الشطرنج السوفييتي «المنشق» فيكتور كورتشنوي، وصولاً إلى الصراع بين الماضي السوفييتي وما أطلق عليه الإصلاحات خلال مواجهة كاربوف وكاسباروف.ويعتبر مدير المتحف التابع للاتحاد الروسي للشطرنج، دميتري أولينيكوف، أن الريادة السوفييتية في لعبة الشطرنج كانت ناجمة عن الدعم الحكومي الهائل المقدم لهذه الرياضة، انطلاقاً من شعار «الجماهيرية تولد الاحترافية»، مقراً بأن اللعبة تجاوزت بمراحل كثيرة نطاق الرقعة. يقول أولينيكوف الذي يحمل درجة الدكتوراه في التاريخ، لـ«العربي الجديد»: «كان الاتحاد السوفييتي هو أول بلد قدّم دعماً حكومياً كاملاً للشطرنج على مستوى هرم السلطة التنفيذية. نتيجة لذلك، ارتفع عدد لاعبي الشطرنج في البلاد بحلول بداية عهد ميخائيل بوتفينيك (1911- 1995)، إلى أكثر من مليون، بفارق قدره عدة أضعاف مقارنة مع بقية بلدان الاتحاد الدولي للشطرنج (فيدي)». ويلفت إلى أن «اللاعبين السوفييت لم ينخرطوا في البطولات الدولية للشطرنج إلا بعد الحرب العالمية الثانية (1939- 1945)، وظلت مشاركتهم قبلها في البطولات الدولية نادرة، حتى تخلي الاتحاد السوفييتي عن السياسات الانعزالية في مجال الرياضة عام 1947، وتلا ذلك انضمامه إلى الاتحاد الدولي، ثم مشاركة لاعبيه في البطولات».

وبموازاة احتدام «الحرب الباردة» والتنافس السوفييتي الأميركي في شتى المجالات، بما فيها الرياضة، سرعان ما تحولت رقعة الشطرنج إلى إحدى ساحات المواجهة، لا سيما بعد انتزاع الأميركي بوبي فيشر (1943- 2008)، لقب بطل العالم من السوفييتي بوريس سباسكي (87 سنة)، في عام 1972. لكن تتويج فيشر لم يكتب له أن يدوم طويلاً، إذ أصبح اللاعب السوفييتي الشاب حينها، أناتولي كاربوف (71 سنة)، بطل العالم الـ12 للشطرنج في عام 1975، بعد رفض فيشر خوض المباراة إثر رفض الاتحاد الدولي للشطرنج طلباته المتعلقة بتعديل بعض القواعد. بعد تلك الواقعة، انعزل فيشر لمدة 17 عاماً، ثم ظهر عام 1992 ليلعب مباراة غير رسمية ضد بوريس سباسكي في يوغوسلافيا، وحينها حذرته الولايات المتحدة من مغبة خوض المباراة بسبب العقوبات التي كانت مفروضة على هذا البلد، لكن فيشر أصر على خوض المباراة. على إثر ذلك صدرت مذكرة اعتقال بحقه، فعاش يتنقل بين بلدان، من بينها المجر وألمانيا والفيليبين واليابان، وصدر عنه خلال هذه الفترة العديد من التصريحات المعادية لأميركا وإسرائيل، ثم أُلقي القبض عليه في اليابان في 2004، أثناء محاولته الذهاب إلى الفيليبين بجواز سفر مزور، وسُجن لثمانية أشهر، وعندما سعت السلطات اليابانية لترحيلهِ إلى الولايات المتحدة، ضغط معجبوه على البرلمان الأيسلندي لمنحه الجنسية، فسلمته اليابان إلى أيسلندا التي لم يغادرها حتى وفاته في 2008. وحول الأبعاد الجيوسياسية لمباريات الشطرنج في تلك الفترة، يقول أولينيكوف: «كانت الخلفية السياسية أكثر وضوحاً في المباراة بين سباسكي وفيشر، أما مباراة كاربوف وفيشر التي لم تتم، فهيمن عليها فقدان فيشر اتزانه، وتوقفه عن المشاركة في بطولات الشطرنج، ووضعه شروطاً تعجيزية لإجراء المباراة مع كاربوف وعزوف الولايات المتحدة عن تحفيزه». وفي عام 1978، خيمت أجواء «الحرب الباردة» على المباراة بين كاربوف ولاعب الشطرنج السوفييتي المنشق، فيكتور كورتشنوي (1931- 2016)، في مدينة باغويو الفيليبينية، والتي تابعها الاتحاد السوفييتي قيادة وشعباً، كاتماً أنفاسه. وقد تمكن كاربوف من الفوز في الدور الحاسم من المباراة التي دامت ثلاثة أشهر كاملة، ليحافظ على لقبه بالحصول على ست نقاط مقابل خمس لكورتشنوي الذي ولد في سانت بطرسبرغ، لكنه عاش في سويسرا لسنوات عديدة، وأصبح مواطناً سويسرياً، ولفظ أنفاسه عن عمر ناهز 85 سنة هناك.

ويعلق أولينيكوف على المغزى السياسي لهذه المواجهة، قائلاً: «أصبح كورتشنوي راية غربية على رقعة الشطرنج على هامش (الحرب الباردة)، باعتباره منشقاً تحدى النظام، بينما كان الاتحاد السوفييتي ينظر إلى كاربوف على أنه مواطن يدين بالولاء لبلده، ويدافع عن شرفه في مواجهة الخائن الذي فر إلى الغرب، والذي يتقاضى أموالاً طائلة في مقابل التشهير بوطنه الأم ولاعبيه». فاز كاربوف في مباراة أخرى مع كورتشنوي في عام 1981، قبل أن يخسر لقبه أمام غاري كاسباروف (61 سنة) في عام 1985، وسط هيمنة السياسة الداخلية هذه المرة على المباراة. فحينها، جسد كاسباروف زمن التغيير وبرنامج الإصلاحات «بيريسترويكا» تحت قيادة آخر زعماء الاتحاد السوفييتي، ميخائيل غورباتوشف، في السنوات الأخيرة من عمر الدولة السوفييتية.

ويقلل أولينيكوف من أهمية هذه المواجهة، موضحاً: «جسدت هذه المباراة صراعاً بين كاربوف المدعوم من أجهزة السلطة المركزية، وكاسباروف المولود في مدينة باكو، والذي حظي برعاية جمهورية أذربيجان ورئيسها آنذاك، حيدر علييف، وأحدث صراع الأحزاب انقساماً في قطاع الشطرنج السوفييتي، إذ سعى كاسباروف وأنصاره إلى إنشاء منظمة بديلة لاتحاد الشطرنج السوفييتي بهدف التحكم في (سوق) احتراف الشطرنج». وبينما كان كاسباروف أصغر لاعب في التاريخ يصبح بطل العالم في الشطرنج عن عمر لم يتجاوز 22 سنة، فمن اللافت أنه بعد إنهاء مسيرته كلاعب في عام 2005، توجه نحو العمل السياسي، ليتحول إلى واحد من أشرس معارضي الكرملين في داخل البلاد أولاً، ثم في المنفى في نيويورك بعد مغادرته روسيا في عام 2013. وفي مارس/ آذار الماضي، أدرجت هيئة الرقابة المالية الروسية اسم كاسباروف على قائمة «التطرف والإرهاب»، وذلك بعد أقل من عامين على تصنيفه «عميلاً للخارج» من قبل وزارة العدل الروسية.

باختصار

نجمت الريادة السوفييتية في الشطرنج عن الدعم الحكومي الذي ينطلق من شعار «الجماهيرية تولّد الاحترافية»

■■■

لم ينخرط اللاعبون السوفييت في بطولات الشطرنج الدولية إلا بعد التخلي عن السياسات الانعزالية عقب الحرب العالمية الثانية

■■■

بموازاة احتدام التنافس السوفييتي الأميركي خلال «الحرب الباردة» تحولت رقعة الشطرنج إلى إحدى ساحات المواجهة

وأخيراً

مباريات الحقّ والقوّة

نجوى بركات

اعلمْ، أيدّك الله، أنك إمّا من أولئك الذين يؤمنون بانتصار الخير على الشر في نهاية المطاف، ذلك أنّ لكل شرّير عقابه، ولا بدّ للحقّ من أن يعلو ويظهر، وينتصر على الباطل، مهما استقوى وتجبّر وساد. وإمّا أنّك من هؤلاء الذين يرون أنّ القوّة هي التي تنتصر دائماً، إذ توجّه الأحداث كما يروق لها، تُعلي مصلحتها على الشأن العام، غير عابئة بما تقتضيه المبادئ والأخلاق.

أولئك وهؤلاء قلّما اجتمعوا على رأي وسطي، بل إنّهم، على تفاؤلهم أو تشاؤمهم، لا يفتقرون إلى أمثلة ولا دلائل ولا براهين مُعبّرة تثبت وجهات نظرهم المتعاكسة. فثمّة من يستشهد بحروب همجية دموية، وانقراض شعوب برمّتها، ومجازر وإبادات لا تني تتكرّر منذ فجر التاريخ، من دون أن ينسى محاكمة حضارة بشرية بُنيت على خطيئة أصلية، وجريمة قتل بين أخوين. في المقابل، ثمّة من يذكّرنا بالنهايات القاتمة لكلّ من استبدّ وطغا، بالطوفان وتماثيل الملح في سدوم وعمورة، وبالخواتيم الدرامية لحضارات ازدهرت وعلت حتّى قارعت الشمس، قبل أن تذوي وتهوي رماداً مذرّراً، وركامَ حجارةٍ صمّاء.

والحال، أنّهما، أيّ الحقّ والقوّة، ما برحا يتنازلان ويتواجهان في مباريات ابتدأت منذ زمن سحيق، لكن للأسف، هو الحقّ من يخرج في كلّ مرّة خاسراً من الحلبة، مليئاً بالرضوض والكدمات، ملتوي الأنف، دامي الوجه، مكسور الأضلاع، لا يسانده جمهور ولا يهتف له مشجّعون، وإن فعلوا، فلحثّه، فقط، على مبادلة القوّة بأقسى اللكمات، سعياً إلى الانتقام. والحال أنّ الجمهور، إذ اعتاده خاسراً أبداً، بات يتخلّى بسهولة عنه. وحدهم ضعاف القلوب ورهاف الحسّ يخرجون مغادرين، ومن يبقى منهم يقفل أذنيه ويغمض عينيه لأنّ ما يدور أمامه يفوق مقدرته على الاحتمال. في كلّ الأحوال، لا بدّ أن يغادر الجمهور وتُطفأ الأضواء، فيجلس الحقّ وحيداً، متكوماً في الزاوية، متّكئا على الحبال، يُحصي خسائره من أرواح وممتلكات ومبادئ وأحلام وفِكَر، فيما يُرجع الصدى من البعيد هتافات المُحتفلين بالانتصار.

لِمَ تراه يكرّر الأخطاء نفسها؟ تتساءل القوّة؛ كيف لا يرى الثابت الأكيد وما زال يَعجَب أنّ الاستغاثات لا تُسمع، والحرائق لا تُطفأ، والعيون لا تخشع، والأفئدة لا ترتعش أمام اندحار الحياة وتفريغها من كلّ مقاومة؟... في نهاية الموقعة، يقف الحقّ بصعوبة، يجرجر قدميه الثقيلتين. هو لا يريد أن يبدّل ثيابه الممزّقة، أن يغسل وجهه من كتل الدم المتيبّسة. عينه اليسرى لا تَرى بصفاء، واليمنى تكاد لا تُرى. لن يعود إلى بيت. لا مكان له في الأصل، ليس ثمّة من ينتظره أو يكترث له، ومن تُراه يبقى مُريداً لخاسرٍ أبديّ؟ في الحانة القريبة، حيث يجتمع خاسرون من أمثاله، يستقبله النادل ببذلته الجرداء فاقدة اللون: «أهلاً بالبطل»، يقول بضحكة صدئة خارجة من فم لامع اللثّة، شبه خال من الأسنان. «الحق سيف قاطِع»؛ يقول أحدهم، لكن من ذا الذي سيتحقّق من هذا القول؟ بل إنّ من سيفعل، سيغمى عليه ضحكاً. والحقّ الحقّ أقول لكم، الحق ليس سيفاً، وإن كان، فهو من البلاستيك والكاوتشوك، لعبة، يلتوي بسهولة، خفيف الوزن، لا يؤذي ولا يجرح، ومُصرّح به من وكالات حماية الطفل (!) والحقّ الحق أقول لكم، ليس الباطلُ نقيضه، كما يُعتقد، إذ إنّ الأخير يبيّض صفحته ويُكسبه بالتضادّ معنى إيجابياً، بينما تُفقده القوّةُ حيلتَه، تكشف قناعَه، وتقدّمه عارياً، مغلوبا على أمره. القوّة، على عكس الباطل، ليست معياراً أخلاقياً. القوّة مكتفية بذاتها، لا تحتاج تعريفاً أو دعماً بالتناغم معها أو بالتضادّ. ترجع القوّةُ في آخر الليل إلى كهفها. يزول انتشاؤها. تكرار هذه المباريات بدأ يتعبها، السبب هو انعدام التكافؤ. لا إمتاع في مسابقة تعرف سلفاً أنّك أبداً رابحُها؟

> القوّة، على عكس الباطل، ليست معياراً أخلاقياً. القوّة مكتفية بذاتها، لا تحتاج تعريفاً أو دعماً بالتناغم معها أو بالتضادّ

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **دينارات**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**